

النشاط الثقافي في الوطن العربي

رسالة القاهرة

ج.ع.م.

العروبة في فكر عبدالناصر : خطران ونتيجة واحدة

ربما كانت أكثر المشكلات التي تطرحها الثورة الناصرية تعقيدا من الناحية النظرية ، هي ان عبد الناصر ، قائد هذه الثورة ومنظّمها وواضع أسسها ، لم «يكتب» نظرية بالصورة التي تراها عند قادة التجارب الثورية الرائدة . لقد ترك عبد الناصر تراثا عريضا ومتنوعا من الخطب والبيانات ، وصاغ الكثير من أفكاره في بعض الأعمال المكتوبة الرئيسية ، مثل الميثاق الوطني عام ١٩٦٢ ، وبرنامج ٣٠ مارس عام ١٩٦٨ : ولكنه قال عن الميثاق مثلا انه ليس كلاما متزلا ، وانه لا ينبغي ان يتحول الى قيد على الحركة الثورية اذا تجاوز «الواقع» السياسي والاجتماعي الخطوط التي يرسمها الميثاق ، كما قال عن برنامج ٣٠ مارس انه برنامج للعمل ، وليس جزءا من نظرية ، وان كان يستند الى الخطوط الأساسية من «المنهج» الفكري والعملية الثوري الذي اتبعه عبد الناصر .

اننا نعتقد ان عدم كتابة «النظرية» الرسمية للثورة الناصرية بقلم قائد هذه الثورة نفسه يضعنا في موقف من جانبيين متقابلين : فمن ناحية سلبية قد يعرضنا هذا الموقف للاختلاف على تفسير الكثير من كلماته ومواقفه على اساس انها كانت مرتبطة بلحظات معينة من مسار الثورة املت اتخاذ موقف او اطلاق شعار معين . ومن ناحية ايجابية سوف يجنبنا هذا الموقف ان نحبس انفسنا داخل اطار قولنا محدد تمت صياغته في مرحلة محددة ولا بد في مرحلة اخرى ان يتجاوز التطور ويتخطاه مسار الثورة .

لقد كانت الميزة الأساسية لقيادة عبد الناصر لثورتنا في منتصف القرن العشرين ، انه استطاع على الدوام ان يكون على علاقة وثيقة بنض حركة الثورة العربية ، الامر الذي جعله قادرا على التعبير دائما عن متطلبات هذه الحركة وضرورتها ، وقادرا في نفس الوقت على ان يطرح على قواها الرئيسية المهام والقضايا والشعارات التي تدفعها الى طريقها الصحيح والى اهدافها الصحيحة .

كان موقف عبد الناصر الاستراتيجي والثابت من الاستعمار العالمي ، ومن الرجعية العربية ومن التخلف الاجتماعي والاقتصادي في الوطن العربي هو الموقف «العملي» الاساسي الذي نقيس به حركة الثورة العربية ، والمواقف الصحيحة التي ينبغي ان تتخذها قوى هذه الثورة ، والشعارات الصحيحة التي ينبغي ان ترفع في كل مرحلة او في كل جزء تكتيكي من مرحلة . وهذا معناه ان موقف عبد الناصر الاستراتيجي والثابت من الثورة الوطنية العربية المرتبطة ارتباطا تاريخيا ومصريا بالثورة الاجتماعية في كل جزء من اجزاء الوطن العربي ، هذا الموقف الاستراتيجي والثابت هو الذي اضاع الطريق دائما امام كل المواقف التكتيكية والمرحلية للقيادة الناصرية .

فاذا لم يكن عبد الناصر قد كتب نظرية ، فانه بلا شك قد حدد اهدافا والتزم منها . استوحى الاهداف من ارتباطه بحركة الثورة الوطنية والاجتماعية العربية ومن التزامه بمصالح أكثر قوى هذه الحركة ثورية وهم العمال والفلاحون والجنود والمثقفون الثوريون . والتزم المنهج الذي يثبت الاهداف الاستراتيجية لمرحلة اتمام الثورة

الوطنية العربية من ناحية ، والذي لن يهمل في كل لحظة مناسبة ارساء الاسس اللازمة للبدء في الثورة الاجتماعية او لتطوير هذه الثورة : وهو نفس المنهج الذي لا يثبت اي هدف تكتيكي الا بمقدار ما تمليه المصالح الاستراتيجية للثورة ، والمواقف التي تتخذها القوى المختلفة لهذه الثورة .

ان التزامنا بالاهداف الاستراتيجية للثورة الوطنية العربية : اهداف التحرر الوطني الكامل للتراب العربي من المحيط السى الخليج ، ومحو كل اثر للاستعمار القديم والجديد والطبقات المتعاملة معه ، ومقرطة الحياة الاقتصادية والسياسية العربية واعادتها للتخول الاجتماعي الثوري بهدف القضاء على التجزئة والتخلف . كما ان التزامنا بمنهج العمل الثوري الناصري : منهج تثبيت الاهداف الاستراتيجية والتخلي عن كل «جهود» سياسي لصالح هذه الاهداف: ذلك الالتزام وحده هو القادر على تجنب قوى الثورة العربية مخاطر الاختلاف حول التفسيرات ، وهو القادر على تجنب تلك القسوى مخاطر الوقوع في شرك تجميد مقولات بعينها بدعوى ان هذه المقولات هي المعبرة عن قيادة عبد الناصر الثورية . ولكن من البديهي - بعد ان فقدنا عبد الناصر - ان تظهر اجتهادات نظرية وتحليلية كثيرة ، تهدف الى الكشف عن الجوانب المختلفة لفكر عبد الناصر ، وتسنند في محاولاتنا الى كلمات عبد الناصر المسجلة او مواقفه المتعددة .

ومن البديهي كذلك ان نتال موضوعات «القومية العربية» و«الانتماء العربي للثورة الناصرية» ، «الوحدة العربية» ، «الفكرة العربية» ، هذه الصياغات والمشاكل السياسية المختلفة لقضية «العروبة» ، من البديهي ان نتال اهتماما خاصا من جانب المفكرين والكتاب العرب في مصر وفي غيرها من اقطار الوطن العربي ، حيث يتصدون لمهمة اكتشاف فكر عبد الناصر وتحديد معالاه ، وتطويره .

ولا ينبغي هنا ان تخيفنا كلمة «التطوير» . فمن المسلم به ان عبد الناصر نفسه قد طور أفكاره المتعلقة بقضايا العروبة او الثورة الوطنية القومية ، والاشتراكية او الثورة الاجتماعية ، وعلاقة الثورتين بالحركة الثورية العالمية بجناحيها التحرري الوطني - الاشتراكي ، وزاد هذه الافكار عمقا وتمديدا على ضوء ارتباطه العميق بمصالح الثورة العربية الوطنية وقواها الأكثر ثباتا وثورية ، هذا الارتباط الذي جنب الثورة الناصرية الوقوع في وهدة التلغيق والانتهازية الفكرية التي تردت اليها قيادات الكثير من ثورات العالم الثالث واحزابها التي ترفع شعارات التحرر الوطني والاشتراكية .

ومن البديهي ايضا ان تتلون محاولات اكتشاف الجوانب المختلفة لفكر عبد الناصر - والجانب المتعلق بقضية العروبة بالذات - بالوان ووجهات نظر اصحابها . ومن البديهي كذلك ان ترتطم في بعض تلك المحاولات بنوع الفجاجة السياسية غير المتوقعة او بنتائج صحيحة يصعب التسليم بالعملية التي ادت الى استخلاصها من مقدماتها الخاطئة او المتسرعة ، او بفكر فلسفي غائم وغير محدد يحاول ان يداري بموضهه والتوائه انتماءه الى اصول فكرية معادية اصلا لكل تحرر وطني او ثورة اجتماعية ومعادية للمفهوم العلمي للتاريخ الذي كانت ثورة عبد الناصر تجسيدا حيا وخلاقا ومتجددا له . ولكننا لن

تعدم العثور على التصور التحليلي العلمي لوقف عبد الناصر وأفكاره من قضايا العروبة انطلاقا من نفس الاسس التي قال بها عبد الناصر نفسه وانطلق منها .

وربما كانت اهم تلك المحاولات منذ وفاة القائد العظيم ، هسي المقالات الاربعة التي نشرت في مجلات الطليعة والكتاب والفكر المعاصر القاهرية في اعداد شهر نوفمبر (تشرين الثاني) وهي : «جمال عبد الناصر والقومية العربية» للدكتور اسماعيل صبري عبد الله في مجلة الطليعة ، «الوحدة العربية والتقدمية» للدكتور عبد العزيز الاهواني في مجلة الكتاب ، «الفكرة العربية في واقعها المعاصر» للدكتور حسين فوزي النجار ، «الثورة المصرية وقضية الانتماء العربي» للدكتور عبد العظيم انيس في مجلة الفكر المعاصر .

ورغم المنهج الماركسي الواضح السمات في مقال الدكتور اسماعيل صبري ، فاننا سنصطدم بمجموعة من المقالات ليس اقلها خطا تلك المقابلة التي تنظر الى «العروبة» باعتبارها ظاهرة قومية وحسدت الشعوب التي تنتمي اليها منذ «انهايار دولة الخلافة» .

فبناء على تحليل مختلط وغائم يتوصل الكاتب الى ان «العرب» كانوا يمثلون «قومية» واحدة رغم ان الدول التي كانوا يعيشون فسي ظلها كانت دولا دينية في اساسها ؟ وان الحكم المشترك يعتبر مبررا اساسيا لقيام وحدة عربية قديمة من نوع ما ، وان الدولة العثمانية انتهت في القرن التاسع عشر الى ان تكون «دولة عربية يتحكم فسي امورها خليط من الاجانب يعيشون في بلاط استامبول حيث يتكلمون اللغة التركية . لقد كان العرب جميعا قبل الاحتلال الغربي رعية عثمانية حيثما حلوا في بلاد العرب ، ولم تبدأ التفرقة الا مع الاحتلال» .

وبذلك يتوصل الدكتور اسماعيل صبري الى ان الاحتلال التركي كان دليلا على قدم الوحدة العربية ، والقومية العربية ايضا ! .

وبناء على تحليل مشابه في اختلاطه يتوصل الكاتب الى ان شعار «مصر للمصريين» الذي رفمته الحركة الوطنية البورجوازية المصرية في اوائل القرن العشرين ، كان شعارا رفعه حزب الامة (من صنائع الاستعمار) بتحريض من الاحتلال الانجليزي (وتبنت البورجوازية المصرية شعار وحدة وادي النيل كبديل لشعار الوحدة العربية) .

ويهمل الكاتب التحليل الماركسي القائل بان البورجوازية المصرية التي كانت تكافح ضد الاحتلال الانجليزي كانت تكافح ايضا ضد شعار «مصر العثمانية» ، وان هذه البورجوازية قد نمت اقتصاديا وسياسيا بعد معاهدة لندن سنة ١٨٤٨ التي حددت سلطة اسرة محمد علي بمصر وحدها الامر الذي جعل هذه البورجوازية ترتبط بقصور عن «السوق المصرية» المنعزلة عن «الاسواق» المجاورة ، وان هذه البورجوازية قد نمت وجدانيا في ظل «التربية العاطفية» التي وضعها مريوها الكبار من مثل حسن العطار والطهطاوي وعلي مبارك وغيرهم والتي كانت تفكر في اطار «الوطنية المصرية» تاسميسا على الفصل «السياسي والاقتصادي» الذي اشرفنا اليه بين مصر وبين جسم الوطن العربي كله .

ويخلط الكاتب ايضا بين القومية العربية والوحدة العربية خلطا واضحا في تعريفه للثنتين بتعريف واحد ، بقوله : «الوحدة القومية هي جوهرية حركة تحرر وطني من السيطرة الاستعمارية ومن عملاء الاستعمار الاقطاعيين» ثم «القومية العربية اذن هي في المقام الاول حركة تحرر وطني (ايضا) ضد الاستعمار وعملائه الاقطاعيين» .

ويهمل الكاتب (ايضا) ذلك التحليل الماركسي القائل بان الوحدة القومية العربية انما هي الشرة والتميز «القانوني الدستوري» للحركة تحرر وطني تقودها الفئات الاجتماعية الثورية العربية (غير

البورجوازية) . وان القومية العربية التي عبرت عنها البورجوازيات العربية في مختلف افطارها تميرا اقليميا في حركاتها الوطنية المحلية ، ثم تعبيرا «رومانسيا» تارة و«توسعا» تارة اخرى ، لا تحصل على التعبير العلمي والديموقراطي والانساني الا على ايدي نفس هذه الفئات الاجتماعية الثورية الجديدة .

ولكننا سنصطدم بنموذج فكري كامل - وليس بمجرد مجموعة من التصورات المتسرعة او التخليط الفج - في مقال الدكتور حسين فوزي النجار . سنصطدم اولاً بتلك المصطلحات التي لا تحمل دلالة سياسية واقعية ما - حين استخدامها في العلم الاجتماعي السياسي او التاريخي - من مثل : وجدان الجماعة الانسانية وضميرها الاجتماعي ، والاحساس بالتميز ، والولاء لفكرة الجماعة ، والفكرة في حياة الجماعة ، والروح القومية .. الخ .

اننا لا ننوي اللجوء الى المنهج اللغوي الوضعي في مناقشة مقال الدكتور النجار ، ولكننا نحب - بعد هذه الاشارة الى مصطلحاته - نحب ان نشير الى حقيقتين يعبر عنهما مقاله : اولهما ان المنهج الجيوبولوتيكي المستند الى آثار المدرسة الالمانية السياسية في فلسفة التاريخ في القرن الماضي كان على وشك ان يتحول تأثيره في الجامعة المصرية الى نيار كبير - اشبه بالتيار الوضعي او الوجودي اللذين سادا فيما بعد . وثانيهما هي الدكتور حسين فوزي النجار هو اخر المتأثرين بهذا المنهج العريق في مثاليته ، وان كانت مثالية نفقد روعتها وعمقها بانفصالها التلقائي عن جوها «الجرماني» الاصيل ، جو جامعات برلين وميونخ وأوشنباخ ايام فخته وهررد وشيلنج .. وآخرهم شبنجلر . ولولا «هروق» الدكتور جمال حمدان من الدائرة التقليدية لهذا المنهج ومحاولته لمزج المنهج الجيوبولوتيكي بالمنهج التاريخي الاقتصادي (وليس المنهج التاريخي المادي) لاصبح للدكتور النجار زميل واحد في تبني منهجه الطريف .

القومية عند الدكتور النجار ليست نتاجا للعلاقات عنصرية او دينية او ثقافية او اجتماعية او اقتصادية «وان كان لكل منها دورها الفعال في تهيئة الوعي القومي ونموه ، وانما تنشأ القومية ويضطرب بها وجدان الجماعة الانسانية حين يتكون ضميرها الاجتماعي وينمو لديها الوجدان المشترك بوعيا لذاتيتها وادراكها للعلاقات التي تحكم ارادتها وتتهي مصيرها ، وهو ما نبر عنه بالفكرة التي تسبق الوعي وتحدده ، وهي فكرة اجتماعية كظاهرة وهي النواة الاولى في تكوين المضمير الاجتماعي للجماعة الانسانية كاداة .. الخ .. الخ »

ولو اننا استطرنا في نقل بنية طوفان العبارات المترامية لظل اكتشافنا واحدا : ان صناع اللوالب الأنطاطة او «الايات» بتعبير «الصناعية» في وكالة البلع القاهرية ، ليمجزون حتما عن مجارة الدكتور الجرمانى الانتماء في صنع لوالبه اللغوية التي لا نهاية لها ، حيث ينتهي كل شيء بالضبط الى حيث بدأ .

فرغم ما كنا ننتظره من رجل اكاديمي من استخدام دقيق - دقة متناسبة مع منهجه على الأقل - للمصطلحات المتعارف عليها من مثل مصطلح «اجتماعية» بالتحديد ، فاننا نفاجا بان لكل من العلاقات العنصرية (ولا ندري معناها بالضبط عند الكاتب) والدينية والثقافية (والفروض ان العلاقات الدينية جزء من تلك الثقافية عندهم) والاجتماعية (التي من المفروض ان يطلق اسمها على كافة العلاقات الاخرى) طالبا ان «الفكرة التي تسبق الوعي وتحدده» هي فكرة «اجتماعية» كظاهرة . المهم ان الدكتور نجار يكتشف ان هذه العلاقات لا «تنتج» القومية وان شاركت في تهيئة الوعي بها ، ولكن هذا الوعي هو بالتجديد القومية ، وان كانت هناك «فكرة» ما تسبق هذا الوعي ، وهذه الفكرة هسي «وجدان» مشترك (اي انها فكرة وشعور عاطفي لا عقلي فسي وقت

الحضارات والبذور القومية المختلفة (الفولوية والتركية والفارسية والعربية) ونموها المستقل الاقتصادي والسياسي ، هذه العملية التي لم تبدأ الا مع نمو البورجوازيات المحلية في كل قسم من اقسام العالم الاسلامي ، ولم تبدأ بالنسبة للعرب الا بعد انحسار سيطرة «الاعاجم» على العرب ، ولا يمكن ان تبلغ اكمالها الثوري الا من خلال نضال الفئات الثورية في كل قطر عربي ضد «الاعاجم» المعاصرين : الاستعمار والطبقات المتعاملة معه .

وقد كنا ود لو تسمح هذه الرسالة بتتبع العرض والمناقشة حتى تتسع لعرض ومناقشة مقال الدكتور عبد العزيز الاهواني في «الكاتب» والدكتور عبد العظيم انيس في «الفكر المعاصر» ، ولكننا نحب ان نقف عند عرض ومناقشة مقال الدكتور اسماعيل صبري في الطبيعة ، والدكتور حسين فوزي النجار في الفكر المعاصر ، لكسي نستطيع ان نتيين خطرين يواجهان المهمة الضرورية التي لا بد منها بعد وفاة قائد الثورة العربية : خطر الاستخدام المتسرع للمنهج العلمي من ناحية ، وخطر بروز المناهج غير العلمية في مجال تحليل فكسر عبد الناصر ومجالات الثورة العربية المختلفة التي ضرب هذا الفكر في آفاقها . الخطر الاول يؤدي الى تشويه المنهج العلمي ذاته وعزله عن عقول جماهيرنا الثورية حينما يعجز بالتسرع عن وضع التحليل المتكامل المتبصر لقضية القضايا في ثورتنا المعاصرة : وهي قضية «العروبة» او وحدة الثورة الوطنية العربية وتربط اجنحتها . والخطر الثاني يؤدي الى استمرار وتكثيف طبقات الضباب العقلي التي يلفها الفكر المثالي الرجعي على تصورنا الفلسفي لهذه القضية المصرية وما يؤدي اليه ذلك من بلبلية جماهير الثورة امام قضية مصيرها حين تعجز عن متابعة هذا الفكر وتكشف مقدار عزله عن حقيقتها الثورية فتكفر بوظيفة الفكر اصلا وتكفر بقدرته على طرح الحلول الحقيقية لمشاكلها الثقافية والروحية الواقعية وذات التأثير السياسي العميق .

سامي خشبة

القاهرة .

ع.ع.س

من مراسل «الاداب» بدمشق

اول الفاتحين داخل الاممة

« يصنع الناس التاريخ اكثر مما يصنع التاريخ الناس . ولكن ما من جنس او امة تجسدت في اشخاص كامة العربية . فمنذ الف واربعمئة سنة تقريبا ، اي منذ بعثة النبي محمد ، وقصة العالم العربي تنبيل وكانها سلاسل من الجبال ، ذات قمم سامقة من الفتح والسلطان ممثلة بشخصيات تاريخية عظيمة - خالد بن الوليد ، صلاح الدين ، عبدالرحمن ، بيبرس ، محمد علي ، جمال عبدالناصر - وبين هذه الذرى تتحدر وهاد ووديان تظهر عمق الجرف المنهار ، بعد ان تفادر المشهد احدى هذه الشخصيات العظيمة » .

حين يسلك انتوني نتنغ في كتابه «العرب» جمالا عبدالناصر في عداد الخالدين من ابناء هذه الاممة ، ولما يمض على ولايته اكثر من عشر سنوات ، فان نتنغ انما يكون يتحدث بلسان البصيرة والحس مثلما يتحدث بلسان الاستقراء والبحث . فالتجريبية البريطانية لم تمت ولم ينته دورها من العالم عامة ومن الوطن العربي خاصة ، فكيف اذا كانت مصحوبة بتلك الفلاحة التي يتميز بها كبار المثقفين والمهمن ويميز بها واحدهم الاخر في مجال المصاولة والمجاوله ، حتى بين امثين ومرحلتين ومصالحتين وحضارتين ؟

واحد !) وهي ايضا مرتبطة بنمو الضمير الاجتماعي لدى الجماعة ، ولكن الوجدان والفكرة والوعي تكون الضمير الاجتماعي وهو الذي يسبقها الى الوجود ايضا) والفكرة وحدها من بين هذه العناصر - وهي العنصر الاول - اجتماعية ، رغم انها لا تنشأ كنتيجة للعلاقات الاجتماعية !! .

هذه المجموعة الطريفة من اللوالب اللغوية النطاطة ، ننتهي كما هو متوقع الى نتيجة متناقضة ، او مكونة من طرفي نقيض واضحين : تمجيد مثالي «للفكرة» القومية ، وتحقير احق للشعب حامل هذه القومية نفسها . التمجيد للفكرة مستمد من بنديتوكروشة : فروح الامة او الفكرة التي تغفلها (وطالما هبطنا الى الاستعارات اللاتينية بدلا من الجرمانية فلا بد من الحديث عن الروح بدلا من الحديث عن الفكرة) هي التي تحكم مسارها وتاريخها على الزمن وهي التي تستهدها التفسير لتاريخها المعاصر ... ان التاريخ كله هو تاريخ «الحاضر» .

ولكن تحقير الشعب حامل القومية ، مستمد (ويا للعجب) من ابن خلدون ! فبعد تعقب التاريخ (الذي هو تاريخ الحاضر) منذ اوائل الساميين الذين برجع اصلهم جميعا الى الجزيرة العربية ، وما نتج عن هجرتهم من موطنهم الى البقاع القريبة من صيفها بالصفة السامية العربية ، الى العصر الجليدي وما بعده من تخمينات عن وجود حضارة عربية متكاملة مفقودة لانها دفنت تحت رمال نجد والربع الخالي ، نصل الى ان : «وقد ادرك ابن خلدون هذا الطابع وعرف آثاره فوصف العرب بانهم لا يتغلبون الا على البساط واذا تغلبوا على اوطار اسرع اليها الخراب ، ولا يحصل لهم الملك الا بصفة دينية من نوة او ولاية او اثر عظيم من الدين وانهم ابعد الامم عن سياسة الملك . ولعلنا بدافع الاستعلاء وهو بعض فطرتنا لا نتفق مع ابن خلدون فيما قال ، الا ان التاريخ بتنبأ بصدقه (كذا) فان اعظم علماء العرب ومفكرهم كانوا من اصول اعجمية (كذا) فلما انتهى الحكم والسلطان اليهم اتخذوا من الاعاجم اعوانا على ادارة الملك وسياسته فلما ضعف امرهم انتهى الحكم والسلطان الى الوزراء وامراء الجند من الاعاجم ، ووقف الاعاجم يثودون عن بيضة الاسلام امام الصليبيين والمغول (كذا) الا ان هؤلاء الاعاجم كانوا قد استعربوا ..» الخ .. الخ .

وحين يشعر الدكتور الجرمانى الذي اصبح لانييا فلم يحسن ان يفهم ابن خلدون العربي ولا دوافعه ، حين يشعر بالمازق المضحك الذي سيؤدي به اليه تحليله اللولبي ، يتنازل عن مهمة التحليل ويكتفي بالتاريخ : حيثئذ يصبح انجلو سكسونيا : فيستمر تاريخه ل جورج انطونبوس : ولكنه يفضل ان ينتهي الى التحليل حيث «يقب» اي «يطفو» بالتعبير المصري ، ناصرا واشتراكيا وعربيا وحدويا والله العظيم !! .

المهم انه لا يكتشف مقدار ما يقوم من تناقض بين تصوره الخيالي عن «حضارة» سامية عربية مدفونة تحت رمال نجد وعسير ونهامسة واليمامة والربع الخالي ، وعن ان كل الحضارات العراقية والشامية والمصرية القديمة هي حضارات «عربية» لان الارجح ان اهلها جاؤوا من الجزيرة العربية (!) وبين التحقير الزري للعرب بانهم «اذا تغلبوا على اوطان اسرع اليها الخراب» . ولانه في الغالب لا يعرف شيئا عن ازدهار الزراعة والتجارة والتعليم والصناعات اليدوية في «الاطوان» التي فتحتها العرب بعد الاسلام عندما كان العرب هم من يديرونها وبعد ان تم «تعريب» هذه الاوطان ، ولا يعرف شيئا عن تدهور هذه المظاهر الحضارية حينما «انتهى الملك والسلطان الى الاعاجم» الاسيويين البرابرة الذين فرضوا على الحضارة العربية حكما وسيطرة ونظما قبلية ومنعوا الثقافة العربية من التطور ومنعوا معها العملية الطبيعية التي كان من الممكن ان تحكم تطور العالم الاسلامي وهي عملية انفصال

ولا بالثقافة الاجنبية او بطول الباع في موضوعات الاختصاص .

كان متملئا من قضايا الامة ومشكلاتها . وقد سمعه الناس يعرض قضاياهم عرض الخبير المؤمن ، فاسلموا له زمامهم ، ولم يضعهم ابدا . كثيرا ما حار المنظرون في ايدولوجيته ، بحيث وصفه ايدن بانه هتلر جديد ووصفه به بعض الدارسين الى تراث الشيخين محمد عبده وجمال الدين الافغاني كعامل في سبيل تجديد الاسلام . ونعى عليه الاخرون ، وبخاصة اصحاب النظريات العرب منهم انه رجل تجريبي انتقائى مرحلي . يقصدون بذلك انه لم يعتنق عقيدة من العقائد السائدة في القرن العشرين وانه بلا حزب يعتنق مثل نك العقيدة وانه يتصرف بحسب تقلبات كل مرحلة . واني لانسأل : اليس الايمان بوحدة الامة وحريتها وتطورها عقيدة تسخر من اجلها جميع العقائد للتسد العقيدة الافضل وتأتي بالنتيجة المرجوة ولئن لم يكن له حزب فقد كانت له العرب في مشارق الارض ومغاربها حزبا يتجه انى يوجهه . وحتى اذا لم يؤمن البعض بمثل هذا المنطق فلا بد ان نشرح لهم ان القائد كان اولا بحاجة الى تكوين رأي عام عريض ثم يمكن بعدها ان يؤلف حزبا . اما بخصوص ايمانه بالرحلة وانصرافه عنها الى غيرها بعدها ، فبحق السماء أين هي الدولة التي تصرف في كل المراحل بحسب ما تملئ عليها عقيدتها ، بعيدا عن مصالحها العسكرية والاقتصادية؟ ان مثل هذه الدولة لم توجد على الارض بعد ، واذا وجدت فان تكون ضمن المنطقة العربية خلال العقد الخامس والسادس من هذا القرن . ان عبدالناصر قد ورث مصر اقطاعية وعالمنا عربيا قريبا طائفا مستعمرا ، يرى مواضع الخلاف ولا يرى مواضع الاتفاق ، فكان جهده ان يخلق النظام من الفوضى والوحدة من التفرقة والعروبة من الاقليمية والعلمانية من الطائفية : وهذا جهد الفنان العبقرى . وليس فى العالم امهر من هذا القائد الذي يقلب كل نقطة ضعف الى نقطة قوة : استغل حب المصريين لمصر كي يحرقها ، واستغل مصالح الغرب فى المنطقة العربية ليجعل منها سلاحا يهدد به في كل مناسبة ، واستغل حتى عدم وجود حزب قوى يناصره وليشمر الرجل العادي بانه يتمدد عليه مباشرة . وفي حين ان كل الحكومات الاقليمية كانت تفرق شعوبها بمشكلاتها المحلية او بمشكلات التحرر « العالمي » فان عبدالناصر هو الوحيد الذي كان يجابه الامة بمشكلاتها القومية ويتجنب الحديث في المشكلات المحلية ما استطاع الى ذلك سبيلا . وكان يتخذ من هذه المشكلات موافق يلتزم بها كمفكر قومي وكرئيس دولة فاستحق بذلك لقب « القائد » . وان من ينظر نظرة موضوعية الى التزام القائد بتحرير مصر سياسيا واقتصاديا ، وتحرير الجزائر واليمن وعدن ، والثورات الافريقية المختلفة وكتلة الحيايد الايجابي ، يدرك تمام الادراك ان دولة عبدالناصر كانت اكثر الدول في العالم التزاما بمواقفها العقائدية : هذا اذا لم نقل شيئا عن كفاحه من اجل الوحدة وتحرير فلسطين . كما يدرك اي متأمل عقائدي ان قيادة عبدالناصر قد اوجدت دولة عقائدية صرفا لم تكن الارض تعرف مثلها قبلها ابدا . غير ان الضعف الزمن الموزون في المادة التي كان يستعملها القائد لتنفيذ اهدافه ، هذا الضعف قدم به عن الوصول الى نتائج حاسمة ، وان لم يقعد به عن المناوشة ورسم الاهداف البعيدة وتحديد الطرق اليها .

استلم القائد مصر وعلى ضفاف السويس سبعون الف جنسدي بريطاني مزودين بافضل اسلحة النصف الاول من القرن العشرين ، وغادرها وعلى الضفة الشرقية من القناة مائة الف جندي اسرائيلي . ان هذه الواقعة لا تشهد باخفاق القيادة الناصرية بقدر ما تفضح شراسة الاستعمار والصليبية الغربية الحديثة في حملتها القائمة على انكار العروبة وحق العرب في الوجود . وليس العجيب ان يحدث هذا ، بل العجيب ان يظهر القائد ويسير برسائله مل يقرب من عشرين عاما وفي الجزائر نصف مليون جندي مسلحهم حلف الاطلسي ومليون ونصف المليون من المصريين الفرنسيين . وفي عدن سبعون الف

على اني لا اسوق هنا هذا الاستشهاد بهذا المقتبس في معرض البرهان على عظمة قائدها ، برهاننا خارجيا يعتمد عن نطاق تجوال القائد في الامة وانره على ميخلتها وطريقة ردود فعلها . لانني اذا ركبت هذا المركب الخشن ، اكون قد ابتعدت عن العيان والبرهان ، وعن الوعي التاريخي والشعور الجماهيري الذي هو برهان بذاته على شيء اخر Self evident الى حيز المأثور والمقول من افوال الاصدقاء والخصوم . وهو حيز فيه الكثير من الزيف والهوى والغرض ، ممن ابتلوا بمرض في قلوبهم ، وعلى سمعهم وابصارهم غشاوة ، فانفقوا حياهم ، خلال حياة القائد ، وهم يعرفون الكلم عن مواضعه تارة ، ويؤمنون ببعض عبدالناصر ويكفرون ببعضه الاخر ، تارات اخرى . بل ان في هذا الحيز بالذات مهاوي الخلاف في عبدالناصر ، على اعتبار ان الذين اووه ورعوه وآمنوا به وقاتلوا وقتلوا في سبيله هم مسن مكونات هذا الوعي ومحصلات هذا الشعور ، في حين ان الذين ماروا به وضلوا عن سبيله هم اولئك الذين ابتعدوا عن هذا الشعور الانساني بالايمان والحماسة ، الى مشاعر اخرى تحتل لللحاجة في البيهيات والحاجة في الاوليات ، فكانوا من الخاسرين وان كسوا ، وسيكونون من الزائلين وان رحل عبدالناصر وبقوا بعده الى حين .

لكنني اوردت هذا الاقتباس لاقتناعي بانه خير ما يشرح الطبيعة القومية الكامنة في ظاهرة الزعامة الناصرية ، المطلقة رغم الفسود ومحاولات التفتيد ، المنتصرة رغما عن الخرائب والاشلاء التي تنتشر على ارضنا هنا ، المتسعة بالرغم من اساليب الاستبساد والاضطهاد والتعسف التي اتبعت ضدها لتحولها الى عقيدة باطنية غير فعالة . انها زعامة توافق مزاجنا القومي : صريحة معنا ، مخالطة مع اعدائنا . تستوعبنا بكل تناقضاتنا ونفهم العالم من خلال تناقضاتنا هذه ذاتها . تعرف احتياجاتنا ولكنها لا ترشونا باعود الكاذبة ، بل تطلب منا المزيد من الصبر على البلاء فتشير فينا حب الاستشهاد الكامن في لا شعورنا ، فتنبعها واعين لتناقضها التي تمثلها ، غافلين عن المشاق التي نجالدها ، راضين بكل التضحيات التي تفرضها ، مقابل تقننا بانها تملك من الاحساس بهدفنا ، والاخلاص لتطلعاتنا . ما يجعلها جديرة بدمائنا . وهذا هو فحوى ذلك الهتاف المعجب الذي لهجت به السنة الجماهير في موكب الحزن العظيم : « بالروح ، بالدم ، حنكمل المشوار .. » .

ولا بد من العودة بالتأكيد على موضوع « المزاج القومي » لانه غاب عن انظار المحللين - او غيب عمدا - في العشرين عاما الماضية التي بزغ فيها واشرق جمال عبدالناصر . صحيح ان حركة التحرر العربي تخضع لقوانين تاريخية حتمية ، ولكن « المزاج القومي » عامل موضوعي لا يقل اهمية عن بقية العوامل الاخرى ، بله انه لا يمكن فهم المد الناصري بدونه على الاطلاق . فمنذ عام ١٩٥٤ الى عام ١٩٦٧ وعبد الناصر يخاطب الجماهير مباشرة ودون حجاب : بحيث يصعب ان نتخيل الشكل الذي كان يمكن ان تكون عليه الزعامة الناصرية بدون اذاعة . وكان القائد يحقق بذلك اهدافا متعددة ، في طليعتها اعادة تسييس العرب بعد ان طردهم عنها الفرس والأتراك في منتصف القرن التاسع الميلادي - اي منذ الف عام تقريبا ، ومع اعادة التسييس يأتي اشعار العربي بانه صانع مصيره والشريك في سلطة الدولة المقبلة ، والاهم من ذلك : انه حامل رسالة ومتصل بالقائد الذي يخاطبه بنفسه ، وهذا شرط الديمقراطية الدائم في نظر العربي . خاطب القائد العرب من وراء حكوماتهم . فاشعرهم انهم امة واحدة وخاطبهم باخفى الاسرار الولوية وحقائق الوضع العالمي ، فاستأنف بذلك الى ادراكهم العام وعمل على اكتسابه وتطويره بحيث صاروا يستشرفون مواقفه ويتنبأون بها من خلال وعيهم المكتسب . ان جزءا كبيرا من نجاحه في حشدهم وقت الازمات يرجع الى انه لم يخاطبهم باكثر من اللغة العادية المحكية ، لغة الكلام اليومي ، فلم يتعال عليهم بالمصطلحات الثورية

تاريخ الأمة رصيذاً ، كل من مسؤول بنسبة « وزناته » .
وسيبقى السؤال معلقاً .

بينك وبين هذه الامة حوار طويل بدأ ولما يكمل . بدأ قلبك
وسيسمر بعدك . فعمر القائد يقاس بميزان التاريخ ، والتاريخ رحب
كأديبة .

حوار ، في حقيقته ، صراع مرير مزك من الداخل . واي قلب
ينقص التاريخ ، اي قلب يرى فيه الشعب صورته ولا يتفجر ؟
امة صلبت وتارت فحملت أنت الخشبة لتجعل منها حرباً .
هذا القرار وضعك في عزلة ؟
هذه الصورة جعلتك رصيذا امام المصير تقوله مسؤولاً عنه
وحدك .

أنت الذي علق الشعب - كما قيل ؟ لا ادري . ولكن الشعب
ايضا « علقك » يوم رفعت . فمن ذا الذي ينبر عمق الماساة التي
عشت يوم التاسع من حزيران ؟ ان استقلت ، ولكن الشعب هب
صارخا في وجهك : الامة لا تستقيل . اعطتك الامة كل الحقوق ما عدا
حقا واحدا : ان يكون لك مصير خاص . فأنت لها لا لذلك .
ثم كانت ماساة « الغداة » تمنيتها فداء « الماساة » : ان يظعن
الاخ اخاه ... وان تحمل وزر الحرب الاهلية .

في تلك اللحظة لم يبق عليك الا ان تشرب الكأس حتى الثمالة .
ففعلت ..

وكنت شهيدا
وكنت الغداة .

حين ابلغت النعمي عدت الى البيت حيث اسكن وحدي ،
واخذت انجول في صمت الفرفرات حتى انهكني الطواف فجلست في
السرير ثم اضطجعت . لم أكن اقرأ . لم أكن افكر . لم أتصور . كنت
هامدا شاخصا في الفراغ . كان في اذني هدير وكان رأسي خاويما
(أصم بك الناعمي ..) بين العين والحين كانت تطفو هذه
الصورة او تلك للقائد او صوته ثم يغيب كل شيء ويبقى الهديل .

بعيد الرابعة صباحا أخذتني سنة ثم انتهت مضطربا لما رأيت
رأيتني في حوض من السمك انا ومن اعرفهم وحشدا كبيرا من الناس ،
لكننا كنا كلنا مخلوقات سمكية لنا غلاصم وزعانف نستخدمها في
القوص والعموم وسط الماء وكنت ارى العالم الخارجي عبر زجاج
شفاف ، كان رماديا غير اجرد وفجأة انبثق امامي عبدالناصر
باجمعه ، بغامته الفارعة وكتفيه العريضتين وبسمته الطمئنة وعينييه
البهيتين المتلاثلتين . ظل يقترب من الحوض بخطى مستعجلة ، التفت
الى من حولي قائلا : هذا هو الانسان . وكلنا سمك . التفتت
الجميع نحوه وكانوا يتنادون وبدأت اصبح ولكن لم اكمل حملتي
فقد مد يده الطويلة نحو الحوض ورأيت كفه العريضة تظللني
حتى احتجب النور تماما ثم احسست بالماء يسوقنا فقد خلسع
الحائط الزجاجي بكفه العملاقة وانساج الماء بنا وابصرت قدميه
تنصرفان به عنا وافقت .

تناولت امالي القالي واخذت ابحت مقلبا حتى وقعت على قصيدة
مالك بن الريب يرثي بها نفسه :
خذاني فجراني بشوبي اليكما

فقد كنت قبل اليوم صعبا قياديا
وقد كنت عطايا اذا الخيل دبرت

سريرا لدى الهيجا الى من دعانيا
ومن غريب الامر ان نفسي اطمانت لدى القراءة الثانية للقصيدة ،
فقد كنت اعتبرها على الدوام افضل تجسيد لموقف الجنس العربي
تجاه الموت ، بحزنها الهاديء ، وشفافيتها النفاذة ، والتأمل المعتبر ،

والجلد الواعي في ابياتها . ان موقف العرقي العربي من الموت موقف
التسليم بالامر الواقع . فلا انهيار ولا ماساة . الموت موت مثلما ان
الحياة حياة .

ثم تلامحت تباشير الصباح فكان اول يوم يشرق على العرب من دون
عبدالناصر ، وخرجت على غير هدى حتى وجدت نفسي بعيد التسامحة
صباحا على مقربة من سفارة الجمهورية العربية المتحدة :

من يذكر ، بعيد اعلان الوحدة بين مصر وسوريا عام ١٩٥٨ ،
حين تسمع الناس بان عبدالناصر اقبل فجأة الى دمشق فانطلقوا من
كل حدب وصوب ينسلون ، بعد ان امضوا الليالي بالهتاف والفرح
حتى اذا علموا ان القائد في قصر الضيافة احتشدوا امامه وطاقوا
حوله حتى سدوا المنافذ اليه والشوارع من جوانبه ففاضت بهم ارجاء
شارع « ابو رمانة » على رجليها ، كذلك حفلت بهم الامكنة ذاتها
صبيحة الفجيسة وهم بين معولة ونائع من فتيات وعجائز . هرعوا
الى حيث اعتادوا ان يروه وطالما تشوقوا الى ان يروه فلم يروا اليوم
غير صم الاحجار . ولما متع النهار امتلا الشارع بالناس الضالين
الذين اقبلوا نحو السفارة بشكل غريزي ، كما غصت السفارة
بابناء الشعب يزورون بوفاء القائد في شخص السفير الذي هذه الحزن
فشل يمتا بل واقعه فصار يرد بالايضاء .

وما ان اقبل المساء حتى ارتدت فتيات دمشق الحداد فلم ير يوم
اعظم منه على الناس ولا اشد هولاً على الرغم من كل ما سبقه مسن
اهوال بذبح الفدائيين ومجابهة اسرائيل وهزيمة حزيران .

ان الموكب الجنائزي العالمي والعربي الذي ودع الرئيس ليظهر حاجة
العالم الى العرب ، في حكمتهم وصلابتهم . ان في خلاص العرب
خلاص العالم . وان التاريخ سيثبت اسم القائد في سجل الغابحين .
فهو اول من قام بالفتح من الداخل وفي الداخل فكان طبيعة مسن
سرايا الفتح المبين . انا على العهد . وان لنا في القائد ومصيره
لاسوة حسنة . « ان تنصروا الله ينصركم ويثبت اقدامكم .. »

دمشق محي الدين صبحي

النشرة القضاية

الصادرة عن وزارة العدل اللبنانية

اجتهادات المحاكم اللبنانية . نصوص تشرية . مقالات حقوقية

تقوم لجنتنا ، بتخصيص خاص ، باعادة طبع
كمية محدودة من اعداد هذه النشرة

منذ بدء صدورها سنة ١٩٤٥ لغاية سنة ١٩٦٨

في مجموعان تحوي كل منها على اعدادها كاملة

اطلوهما بالهاتف رقم ٢٩٦٨٠٥ ، تصلكم لكتبتكم

من دار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع
ص.ب. ٢٠٩١ بيروت

هدية لمشتري خمس مجموعات سنوية فاكثر
مجلد (قصة الارض والفلاح وقوانين اصلاح الزراعي ٦٥ صفحة